

الفصل الثالث عشر

نفير الحرب

أَرْوَحُ إِلَى الْقُصَّاصِ كُلِّ عَشِيَّةٍ أَرْجِي ثَوَابَ اللَّهِ فِي عَدَدِ الْخُطَا

قالت العجوز الثكلي: إني لأجد ريحَ عتبةٍ والنعمان، وأسمع رَجْعَ غنائهما، فانظروا لي مَنْ ذلك الذي يُرْجَعُ هذا الصوت، وإني به لبعيدة عَهْد.

قالت نوار: ذاك عتيبة، ما يزال منذ أيام يُرْجَعُ هذا الصوت غادياً ورائحاً ...

– رَجِمَ الله أباه وعمه، وبُورِكَ لي فيه وفي بشير، لقد أذكّرني غناؤه أباك وعمك يا نوار؛ إذ كانا يُرَدِّدان هذا الصوت كلما غَدَوْا على المسجد أو راحا، فإن هؤلاء القُصَّاص الذين يَغْشَوْنَ مساجدِ المِصرِ للوعظ، والتذكير، ورواية الأخبار والنوادر ليوهمُونَ من يَغْشَى حلقاتهم من الفتیان أَنَّ يوماً في مجلسهم ذاك خيرٌ عند الله من سبعين صلاة، فما يزالون يجتذبونهم بهذا الخيط الدقيق حتى يلزموا حلقاتهم، ثم لا يزالون ينفثون في عُقْدِهِمْ من سحر القول حتى يسوقوهم إلى المنايا باسم الجهاد في سبيل الله.

ودخل عتيبة خفيف الخطا، فسمع، فقال: ماذا تقولين يا جَدَّة؟ أحرأماً أن نغشى المساجد، وأن نستَمِعَ إلى القُصَّاص، وأن نخرج مجاهدين في سبيل الله؟! – لم أقل هذا يا بُني.

– فما هذا الذي سمعت من قولك؟

– لقد قلتُ إِنَّ في عتيبة ملامح من أبيه، وفي صوته أيضاً، وكان أبوك ينشد هذا الشعر إنشادَكَ كلما غدا على المسجد أو راح، ثم ذهب إلى الميدان البعيد، فلم يعد، كما ذهب أخوه من قبل، طار على جناح شاعر، ثم وقع ...